دولة الإمارات العربية المتحدة
دبي

مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية

مجلة علمية محكّمة

العدد الثامن و العشرون
ذو القعدة ١٤٢٥ هـ - ديسمبر ٢٠٠٤م

مَجلَّــة
كُلِّيَّةِ الدِّراساتِ الإِسلاميَّةِ والعربيَّةِ

مجلة علمية محكَّمة

نصف سنويَّة

العدد الثامن والعشرون

ذو القعدة ١٤٢٥ هـ - ديسمبر ٢٠٠٤م

رئيس التَّحرير

أ. د. يوســـف غيـــوة

هيئة التَّحرير

د. فـايـــز الـقرعـــان

د. خـولـــة قـائـد أحـمـــد

د. أبّـشـر عـوض مـحـمـد

د. الشـريـف ولـد أحـمـد

د. قـطـب الـريسونـــي

ردمد: ١٦٠٧-٢٠٩X

تفهرس المجلة في دليل أولريخ الدولي للدوريات تحت رقم ١٥٧٠١٦

المحتويـــــــات

● **الافتتاحية**

رئيس التَّحرير ١١-١٢

● **موقف تفسير المنار من روايات أسباب النـزول والإسرائيليات**

د. أحمد محمد مفلح القضاة: ١٥-٥٦

● **الفرق بين النبي و الرسول (دراسة تحليلية)**

د. أحمد معاذ علوان حقي ٥٧-٩٢

● **مناهج البحث في العقيدة الإسلامية**

«المنهج الكلامي والسلفي في ضوء منهج القرآن الكريم»

أ. د. أحمد محمد أحمد الجلي ٩٣-١٤٠

● **المجمل عند الأصوليين**

د. مها فتحي السيد ١٤١-٢٢٤

● **المدرسـة القيروانيـة**

د. عبدالحميد بن مبارك آل الشيخ مبارك ٢٢٥-٢٦٢

● **الاقتصاد الإسلامي ومواجهة تحديات البطالة**

د. سيد حسن عبدالله ٢٦٣-٣٣٤

● **تَحْقِيـقُ الغَايَـةِ بِدِرَاسَةِ المسْأَلةِ الزُّنْبُورِيَّةِ رِوَايـةً ودِرَايـةً**

د. يوسف بن خلف العيساوي ٣٣٥-٤١٠

● **الصناعة المعجمية عند الفيومي في (المصباح المنير)**

د. رجب عبد الجواد إبراهيم: ٤١١-٤٤٤

المدرسة القيروانية

د. عبدالحميد بن مبارك آل الشيخ مبارك*

* أستاذ الفقه المساعد بجامعة الملك فيصل - السعودية.

ملخص البحث:

يهدف هذا البحث إلى إبراز المدرسة القيروانية التي أهملها المشارقة ظانين أنها مدرسة فقهية بحتة لا اعتناء لها بالحديث وعلومه ناسين مالها من فضل في ذلك مع مواقفها السنية الصلبة أمام المخالفين.

وقد ذكرت رأي الذهبي في عدم اعتناء المغاربة بالحديث ورأى ابن خلدون في أن مشابهة البداوة هي التي حدت بالمغاربة لتقليد مذهب مالك وناقشت الرأيين مفنداً كليهما بالحجج الظاهرة.

وقد أبرزت تأثر هذه المدرسة بمذهب الإمام مالك في الجمع بين الفقه والحديث والأسباب الحقيقية لتقليدهم مذهب مالك.

كما ذكرت نَماذِج من علمائها في الذب عن السنة أمام المخالفين والمبتدعين.

المقدمة

الحمد لله الذي اختص بعض البلاد بما عنه تاريخها يعرب والصلاة والسلام على سيد أهل المشرق والمغرب.

أمَّا بعد فإنَّ أخبار أهل المغرب عموماً وتونس والقيروان على وجه الخصوص لم تأخذ مكانها الطبيعي خصوصاً لدى المشارقة. هذا مع ما يشاع لدى طبقات غير قليلة من العلماء بأن الحديث قليل في المغرب وأن اعتناء المغاربة بالحديث وطلبه ومعرفته وعلله قليل وأن أكثر ما عندهم هي المسائل الفقهية المنقولة عن الإمام مالك.

لذلك أحببت أن أكشف النقاب عن مدينة علم مهمة معروفة بالعلم والعلماء وأسبر غور مدرستها لأبين لكثير من الباحثين ما خفي عنهم من صلة هذه المدرسة؛ المدرسة القيروانية بمدرسة الإمام مالك في الجمع بين الفقه والحديث والقيام بالسنة، فجاء بحثي الموسوم بـ«صلة المدرسة القيروانية بالإمام مالك في الجمع بين الفقه والحديث ، ونماذج من رعيلها الأول في القيام بالسنة». ورأيت أن اختصر العنوان إلى «المدرسة القيروانية».

آمل أن أكون قد وفقت في إخراج البحث بصورة تلبي حاجة الباحثين وتشبع رغبات المتطلعين ، والله أسأل العون والسداد . واعتذر لمن قرأه عن خلل وجده أو هفوة عثر عليها ، مع أملي أن يبلغني بما يراه لأصلحه .

فضل القيروان

تعد مدينة القيروان من مدن الإسلام العظام، يخبر ياقوت بأنها مدينة عظيمة بإفريقية[1] عمرت دهرا وليس بالمغرب مدينة أجل منها[2]، وقد اختطها عقبة بن نافع لتكون حصناً من حصون الإسلام كما قال لأصحابه: «أرى لكم يا معشر العرب أن تتخذوا بها مدينة يجعل بها عسكر، وتكون عزاً للإسلام إلى آخر الدهر[3]، فتباصروا في بنائها بعد أن دعا الله بأصحاب رسول الله ﷺ الذين معه فخرجت سباعها ودوابها[4]، واجتهدوا في بنائها وتحصينها.

ومر بها داعيا: «اللهم املأها علماً وفهما، واعمرها بالمطيعين والعابدين واجعلها عزاً لدينك وذلا على من كفر، وأعز بها الإسلام،وامنعها من جبابرة الأرض[5]. يقول المالكي: «عمرت بفضلاء الناس من الفقهاء والمحدثين والمتطوعين والعابدين والنساك والزاهدين، وأُعزّ بها الإسلام وأهله، ودفع بها أهل النفاق والأهواء والشك والضلالة»[6].

وقد كان لأهلها بلاء في العلم والدين لما وهبهم الله من الحرص على طلبه، ونفعهم بمعلمهم مالك رحمه الله الذي أدرك فيهم الحرص والنجابة قائلا عنهم: «أهل الذكاء والذهن والعقول من الأمصار ثلاثة:المدينة ثم الكوفة ثم القيروان»[7].

والمتتبع تاريخ القيروان ينظر مدى الخدمة الجليلة التي قدمها علماء القيروان على مر العصور للفقه الإسلامي عموماً وفقه مالك على وجه الخصوص[8].

---

(١) إذا أطلق اسم إفريقية في كتب المتقدمين فالمعني به بلاد تونس وما حولها وقد يعم على بلاد المغرب انظر الحموي ا: ١/ ٢٢٨.

(٢) الحموي: ٤/ ٤٢٠.

(٣) المالكي: ١/ ١٠.

(٤) الحموي: ٤ / ٤٢٠. وابن الأثير: ٣ / ٢٣٠.

(٥) المالكي: ١/ ١٠.

(٦) المرجع السابق: ١/ ١٣.

(٧) عياض: ٣ / ٣١٢.

(٨) وإليك بعض الأمثلة، من القيروانيين، فأسد ابن الفرات وأسديته، وسحنون ومدونته، وابن سحنون وجامعه، وابن عبدوس ومجموعته، وابن اللباد وردوده وابن أبي زيد ورسالته ونوادره، والقابسي وممهده، وابن محرز وقصده وإيجازه وتبصرته، والسيوري وتعليقه على المدونة، واللخمي وتبصرته، وابن الصائغ وتعليقه على المدونة، والمالكي وجمعه بين الاستذكار والمنتقى وابن ناجي وشروحه، وابن دينار ومؤنسه، وغيرهم كثير.

مناقشة رأي الذهبي

أهل المشرق يعتزون بالمشارقة عموما، ولا تصل إليهم أخبار أهل المغرب إلا عن طريق رحلات الحج ونحوها، وكان أهل الأندلس أكثر ولعاً بالترحال لبلاد المشرق من أهل إفريقية، فكانت معرفة المشارقة بالأندلسيين أكثر من معرفتهم بأهل إفريقية.

فنجد المشارقة قد أشادوا - على سبيل المثال - بمحنة إمام أهل السنة أحمد بن حنبل في فتنة المعتزلة ونسوا محنة سحنون وأمثاله من علماء القيروان وقضاتها الذين وقفوا سداً منيعاً في وجه المعتزلة، والعبيديين وغيرهم من الظلمة والمبتدعة.

ومنهم الإمام الذهبي رحمه الله عندما تحدث في كتابه الأمصار ذوات الآثار عن إقليم أهل المغرب قال: «فأدناه إقليم إفريقية، وأمها هي مدينة القيروان، كان بها سحنون بن سعيد الفقيه،وأما بجاية وتلمسان وفاس و مراكش وغالب مدائن المغرب فالحديث بها قليل، وبها المسائل»[٩]. نعم بعض المغاربة ربما غلب عليهم ما ذهب إليه الذهبي، فنجد أحمد ابن محمد التلمساني يقول: «وأما ملكة العلوم النظرية فهي قاصرة على البلاد المشرقية، ولا عناية لحذاق القرويين والإفريقيين إلا بتحقيق الفقه فقط، ولم يزل الحال كذلك إلى أن رحل الفقيه ابن زيتون (٦٦٦ - ٧٣٠) إلى المشرق...»[١٠]

ونجد كذلك قاضي سجلماسة أبا الوليد عبد الملك بن محمد التاجموعتي المتوفى ١١١٨ بعد رجوعه من المشرق يطعن في رواية المغاربة، ويقدم رواية أهل المشرق عليها، وقبله أبو مروان السجلماسي كان ينكر ولوع أهل المغرب برواية ابن سعادة في صحيح البخاري، وادعى أن المغرب شاغر من صحيح الروايات[١١].

ولم يكن العالم من بلاد المغرب أو الأندلس ينال شهرة إلا بعد رحلته للمشرق.

والحقيقة أن المتتبع تاريخ القيروان وحدها يجد بها جملة من العلماء، ممن جمع بين الفقه و الحديث، الذي تأسست عليه المدرسة القيروانية، والتي اقتدت في ذلك بإمام الأئمة الذي أجمعت الأمة على إمامته في الفقه والحديث والسنة والجمع بينها.

(٩) الذهبي، الأمصار ذوات الآثار: ١٨٩ . ١٩٢.

(١٠) التلمساني: ٣ / ٢٦.

(١١) الكتاني: ٢٥٥.

وقد يغلب على بعضهم الفقه، ولا يكون له باع في الحديث رغم إمامته في الفقه، كابن عبدوس صاحب المجموعة، الذي قال فيه محمد بن سحنون: «يتكلمون في الفقه، ولعل أحدهم لو سئل عن اسم أبي هريرة ما عرفه»[١٢]. فكان ابن عبدوس ربما قال للرجل من أصحابه:سافهم هذه المسألة فإنها أنفع لك من معرفة اسم أبي هريرة[١٣]. ولعل هذا مما يحدث بين الأقران، وأرى أنه لا ضير على الرجل إذا كان عالماً بأقوال إمامه وأحكام نوازله ومشكلات كتبه أن لا يكون له إلمام بالرجال وباع في الحديث، ولكن إذا اجتمع له الأمران فبخ بخ..

وإليك طرفاً من فقهاء القيروان ممن كانت لهم دراية بالحديث أو مشاركة أو رواية تاركين ذكر بقية رجال إفريقية وبلاد المغرب.

فمنهم محمد بن سحنون، قال فيه أبو العرب: كان عالماً بالآثار، صحيح الكتاب[١٤]. وقال: كان إماماً ثقة عالماً بالمذهب، مذهب أهل المدينة، عالماً بالآثار[١٥]. وقال فيه ابن حارث: كان من الحفاظ[١٦]. وقال ابن الجزار: كان جامعاً لخلال قلَّما اجتمعت في غيره، من الفقه البارع، والعلم بالآثار، والجدل، والحديث[١٧]. وقال عياض:وألف ابن سحنون كتابه المسند في الحديث، وهو مشهور[١٨].

هذا نموذج واحد وإليك طرفاً من رجال القيروان ممن عرف بالحديث ونقله، أو علم الرجال، أو الجمع بين الفقه والحديث، أو الرحلة في طلب الحديث :

فمنهم عبدالله بن فروخ الفارسي (١١٠- ١٧٩) والبهلول بن راشد القيرواني (١٢٨ - ١٨٣)، وأبو علي شقران بن علي القيرواني (... - ١٨٦)، ومن هذه الطبقة كثير.

ومن طبقة ابن سحنون أبو جعفر محمد بن أبي سليمان المعروف بالصواف (٢٠٤ -

(١٢) عياض، ٤/ ٢٢٤.

(١٣٢) المرجع السابق، ٤/ ٢٢٤.

(١٤) المرجع السابق، ٤ / ٢٠٤.

(١٥) المالكي، ١ / ٤٤٣.

(١٦) عياض، ٤ / ٢٠٦.

(١٧) المرجع السابق.

(١٨) المرجع السابق، ٤ / ٢٠٧.

٢٩١)، وأبو سهل فرات بن محمد العبدي (... - ٢٩٢)، و أبو عبد الرحمن بكر بن حماد (... - ٢٩٠)، وسعيد بن إسحاق (... - ٢٩٥).

ومن الطبقة السابعة لقمان بن يوسف (... - ٣١٩)، وأبو جعفر أحمد بن محمد التميمي (... - ٣٢٢)، وأبو العرب محمد بن أحمد التميمي (٢٥٠ - ٣٣٣)، وأبو بكر بن اللباد (... - ٣٣٣).

ومن الطبقة الثامنة أبو محمد عبد الله بن أبي زيد القيرواني (٣١٠ - ٣٨٦) ، وأبو الحسن القابسي (٣٢٤ - ٤٠٣) وأبو عبد الله الحسين بن أبي العباس الأجدابي.

ومن الطبقة التاسعة أبو عمران موسى بن عيسى الغفجومي (... - ٤٣٠)، وأبو بكر أحمد بن عبد الرحمن الخولاني القيرواني (... -٤٣٢)، وأبو بكر المالكي صاحب رياض النفوس ووالده.

ومن الطبقة العاشرة أبو القاسم عبد الخالق بن عبد الوارث السيوري (... - ٤٦٠)، وأبو عبد الله محمد بن سعدون بن علي القيرواني(٤١٣ - ٤٨٦).

ومن الطبقة الحادية عشر أبو الحسن علي بن عبد الله المالكي القيرواني (... - ٥٣٦).

ومن الطبقة الثانية عشر أبو محمد عبد الله بن محمد بن عبد الجليل الأزدي القيرواني (... - ٥٥٠).

ومن الطبقة الثالثة عشر أبو يوسف يعقوب بن ثابت الدهماني القيرواني (... - ٦٢١).

ومن الطبقة الرابعة عشر أبو زيد عبد الرحمن بن عبد السلام المعروف بابن الدباغ (٦٠٥ -٦٩٩) وغيرهم من باقي الطبقات كثير.

أما لو نظرنا إلى بقية بلاد المغرب ففيها جملة من المبرزين من المحدثين والفقهاء ممن يصعب حصرهم.

فتبين لنا مما مر أن مقولة الذهبي غير دقيقه، ولا تخلو من المبالغة، وأنَّ أهل القيروان على وجه الخصوص لم تخل طبقة منهم من العلماء المتفننين الجامعين بين الفقه والحديث، والتي كانت سمة القيروانيين، وإن كانت شهرتهم بالفقه أكثر.

ولو تأمل الناظر في المبرزين من الفقهاء والمحدثين الأندلسيين لوجد لكل منهم شيخا من القيروانيين، أو ممن للقيروانيين عليه مشيخة.

مناقشة رأي ابن خلدون

لا أحب أن أطيل كثيراً في هذه المسألة التي علاها شيء من الغبش بسبب تعليل ابن خلدون بأن السبب الأول في أخذ أهل المغرب و الأندلس بمذهب مالك هو أنَّ رحلتهم كانت غالباً إلى الحجاز، والمدينة حاضرة العلم بها، وذكر السبب الثاني بقوله: «وأيضاً فالبداوة كانت غالبة على أهل المغرب و الأندلس، ولم يكونوا يعانون الحضارة التي لأهل العراق، فكانوا إلى أهل الحجاز أميل لمناسبة البداوة، ولهذا لم يزل المذهب المالكي غضاً عندهم، ولم يأخذه تنقيح الحضارة وتهذيبها، كما وقع في غيره من المذاهب[١٩].

قبل أن نتكلم على الأسباب التي دعت المغاربة إلى الأخذ بمذهب مالك، وصلتهم بمدرسته الحديثية الفقهية وأسباب ترجيح مالك، نود أن نقف وقفات يسيرة نناقش فيها رأي العلامة ابن خلدون[٢٠].

١ – تعميم الحجاز بالبداوة مسألة فيها نظر، فهي بلد حضارة حتى قبل المبعث النبوي لرحلاتهم إلى اليمن والشام كل سنة، والمدينة على وجه الخصوص بلدة زراعية قبل الإسلام وبعده، وقد سكنها اليهود، قبل البعثة النبوية، وهم أهل تمدن وديانة، وزادت الحضارة فيه بعد زيادة الاتصال ببلاد الشام والعراق ومصر ؛ التي فتحت في عهد عمر رضي الله عنه ؛ فتنوعت وتطورت المسائل الفقهية بالنوازل، لاتساع رقعة الدولة وكثرة المجريات فيها واتصالها بالحضارات السائدة آنذاك.

٢ – أنَّ أهل الأندلس كانوا في مدنية بسيطة قبل الإسلام، وازدادوا تمدنا وحضارة في عهد الإسلام في صدره الأول، وهذا أمر مسلم شهد به المخالف، فنجد غوستاف لوبون يقول: «كانت إسبانية النصرانية ذات رخاء قليل وثقافة لا تلائم غير الأجلاف في زمن ملوك القوط، ولم يكد العرب يُتِمون فتح إسبانية حتى بدأوا يقومون برسالة الحضارة فيها، فاستطاعوا في أقل من قرن أن يحيوا ميت الأرضين، ويعمروا خرب المدن، ويقيموا فخم المباني، ويوطدوا وثيق الصلات التجارية بالأمم الأخرى، ثم شرعوا يتفرغون لدراسة

(١٩) ابن خلدون، ١٠٥٤- ١٠٥٥.

(٢٠) ناقشه العلامة أبو زهرة في كتابه: مالك، حياته وعصره: ٣٦٠- ٣٦٢. وقد أخذت منه. كما علق على هذه المسألة علي عبد الواحد، وافي، في تعليقه على مقدمة ابن خلدون: ١٠٥٤- ١٠٥٥. وممن أشار لهذا الموضوع الأستاذ محسن العابد، في القيروان «دراسات حضارية »، ٩١ وما بعدها.

العلوم والآداب، ويترجمون كتب اليونان واللاتين، وينشئون الجامعات التي ظلت وحدها ملجأ للثقافة في أوروبة زمناً طويلا. وأخذت حضارة العرب تنهض منذ ارتقاء عبد الرحمن إلى العرش على الخصوص، أي منذ انفصال إسبانية عن المشرق بإعلان خلافة قرطبة في سنة (٧٥٦م)، فغدت قرطبة، بالحقيقة، أرقى مدن العالم القديم مدة ثلاثة قرون»[٢١].

أما بلاد المغرب وإن كانت أقل حالاً من الأندلس لكثرة المنازعات والحروب - فإنها بلاد حضارية ومدنها شاهدة على ذلك كالقيروان وتونس وفاس وتلمسان وبجاية ونحوها.

ولم يزدد حالها سوءا إلا بعد غارات الأعراب عليها في منتصف القرن الخامس بسبب المنازعات السياسية.

٣ - ثم إنَّ أهل مصر أهل حضارة وتمدن قبل الإسلام وبعده فلماذا أخذوا بمذهب مالك رغم وجود الإمام الشافعي رحمه الله في مصر، ونشره مذهبه الجديد الذي عارض فيه شيخه مالك.

ورغم نصرة الدولة الأيوبية للمذهب الشافعي والدولة العثمانية للحنفي بقي المذهب المالكي كالطود شامخا قوياً في أرض مصر إلى هذا العصر، ولقد قدَّم المصريون في سائر العصور للمذهب المالكي خدمة عظيمة بآرائهم ومناقشاتهم و مصنفاتهم.

فابن القاسم وأشهب وابن الماجشون وابن عبد الحكم وابن وهب وابن المواز وابن الحاجب وخليل والقرافي والأجهوري والزرقاني والخرشي والعدوي والدردير والصاوي والأمير وعليش وأبو زهرة مصريون.

وإذا ما ذهبنا إلى العراق فرغم الدعم السياسي والثقافي لمذهب أبي حنيفة أخذ بالمذهب المالكي من خياره رجال كالأبهري وابن عساكر والقاضي عبد الوهاب وإسماعيل وبيت آل حماد وبقي المذهب المالكي إلى هذا اليوم موجوداً في العراق وفي الجنوب منه على وجه الخصوص[٢٢].

---

(٢١) لوبون، غوستاف، ٢٧٣.

(٢٢) عشائر السعدون بلواء المنتفق بجنوب العراق ما بين بغداد والبصرة غالبيتهم سنة مالكية إلى منتصف القرن الرابع عشر الهجري، رغم التشيع وغلبته على الجنوب.

فهل أهل مصر وأهل العراق أهل بداوة ؟

٤ – زعمه بأن المذهب المالكي كان غضاً بسبب البداوة، أمر غير مسلم؛ فالحضارة والتمدن وكثرة النوازل ومجريات الحياة تزيد المذهب جدة وحيوية، ويشهد بذلك ما فعله أبناء الحضارة في الأندلس والمغرب؛ من تجديده وصيانته والاستدلال له؛ من أمثال سحنون والباجي وابن رشد وحفيده وابن العربي وابن عبد البر والقاضي عياض وابن أبي زيد وأضرابهم.

٥ – بل إن قواعد مذهب مالك وأصوله الواسعة المرنة المبنية بعد الكتاب والسنة والعمل والقياس على المصالح المرسلة وسد الذرائع ومراعاة العرف والعادة وغيرها كفيلة بسد حاجات المجتمعات المتحضرة المتجددة على المستوى الاجتماعي والسياسي والدولي، فهي التي تعطيه هذه المرونة العجيبة – في حدود الشرع وقواعده – ليتسع لكل التطورات ويحتوي كل الحاجات مما يجعله طرياً غضاً معطاء.

٦ – ثم لا يسلم لابن خلدون في أنَّ رحلات المغاربة التي كانت في غالبيتها للحجاز لم تتح لهم فرصة الاطلاع على المذاهب الأخرى في البلاد العراقية والمصرية والشامية، فإنَّ طريقهم كانت إلى مصر ويعرفون العراق وقد ذهب لها أسد بن الفرات وغيره، واستقر بالشام جملة منهم، بل إن الفتاوى والمسائل كانت ترد على مالك من سائر الأقطار وهو بالمدينة فيتصل المغاربة بهذه المسائل والرسائل.

قال ابن وهب: «كان مالك يقول في أكثر ما يسأل عنه: لا أدري. قال عمر بن يزيد: فقلت لمالك في ذلك فقال: يرجع أهل الشام إلى شامهم، وأهل العراق إلى عراقهم، وأهل مصر إلى مصرهم، ثم لعلي أرجع عما أفتيهم به، قال: فأخبرت بذلك الليث، فبكى وقال: مالك والله أقوى من الليث، أو نحو هذا»[٢٣].

٧ – و هب أنَّ رحلاتهم غالباً لا تكون إلا للحجاز ولم يتح لهم الاطلاع على المذهب الحنفي، ألم يكن المذهب الحنفي في حاضرة المغرب وعاصمته القيروان ؟ يقول الدكتور عبد المجيد بن حمده: «ساد في الأذهان أن المجتمع الأفريقي مجتمع فقه، وفقه مالكي

(٢٣) عياض: ١/ ١٨٢.

بالخصوص، والحقيقة أن البيئة الإفريقية احتضنت مدرستي أبي حنيفة ومالك، وبدرجة أقل مدرسة الشافعي»[٢٤].

بل كان المذهب الحنفي هو المذهب الرسمي للحكام الأوائل الأغالبة في الغالب، ومع هذا عدل عنه أكثر الناس إلى مذهب إمام دار الهجرة.

فنخلص من هذا الكلام كله إلى أنَّ هنالك أسباباً مهمة دعت المغاربة للأخذ بالمذهب المالكي نوردها بعد قليل في المبحث الخاص بذلك.

وسأنقل هنا نصوصاً للمغاربة تدل على أنهم لم يأخذوا بمذهب مالك إلا لقناعتهم بأنه أعلم أهل الأرض وأنه قد جمع بين الفقه والحديث والقرآن والسنة.

قال البهلول بن راشد وغيره: «ما رأيت أنزع بآية من كتاب الله من مالك بن أنس، مع معرفته بالصحيح والسقيم، والمعمول به من الحديث والمتروك، وميزة للرجال، وصحة حفظه وكثرة نقده، إلى ما يؤثر عنه من الكلام في غير ذلك من العلوم، كرسالته إلى ابن وهب في الرد على أهل القدر، وكقوله: جالست ابن هرمز ثلاث عشرة سنة، ويروى ست عشرة سنة في علم لم أبثه لأحد من الناس»[٢٥].

قال عياض: قال عبد الرحيم: أُراه ابن عبدربه: «لما خرج أسد إلى الغزاة سألته عما اعتمد عليه، فقال لي: إن أردت الله والدار الآخرة، فعليك بعلم مالك»[٢٦].

وقال سحنون: «قرأ لنا ابن غانم كتاباً من الموطأ، فقال له رجل: يعجبك هذا من قول مالك ؟ فألقى الكتاب من يده وقال: أليس وصمة في عقلي وديني أن أرد على مالك قوله ؟ ولقد أدركت العبّاد أهل الورع والدين الذين يتورعون عن الذر فما فوقه سفيان وذوي سفيان، فما رأيت بعيني أورع من مالك»[٢٧].

وقصته مع الذي جاءه بمسائل أو مسألة استودعه إياها أهل المغرب، فقال لا أدري ؛

(٢٤) ابن حمده: ٣٠ ـ ٣١.

(٢٥) عياض: ١/ ٨١.

(٢٦) المرجع السابق: ١ / ١٦٠.

(٢٧) المرجع السابق: ١ /١٨٥.

ولكن تعود، فعاد الرجل من الغد فقال:لا أدري ما هي ؟ فقال الرجل يا أبا عبد الله تركت خلفي من يقول: ليس على وجه الأرض أعلم منك، فقال مالك غير مستوحش: إذا رجعت فأخبرهم أني لا أحسن[٢٨].

ولكن ما الذي دعاهم إلى ترجيح مذهب مالك على غيره وقولهم ما قالوا ؟

بماذا ترجح مذهب مالك عند المغاربة؟

إن لترجيح المغاربة مذهب مالك وتقليدهم له أسباباً عديدة، لعل أهمها:

١ – ورود الحديث الصحيح المشهور: «يوشك أن يضرب الناس أكباد الإبل في طلب العلم فلا يجدون عالما أعلم من عالم المدينة»[٢٩].

ولا شك أنه مالك لتفرده وكثرة الرحلة إليه وشهادة السلف المعاصرين له بأنه المعني بالحديث.[٣٠].

٢ – مكانة المدينة المنورة في قلوب الصحابة والتابعين وسلف الأمة، و قرب فقه أهلها من النبع الصافي لفقه التابعين والصحابة الآخذين عن النبي ﷺ، وكانوا أعلم الناس بالأحكام، وكانوا يأخذون بالأحدث فالأحدث من أمره ﷺ.

قال زيد بن ثابت: «إذا رأيت أهل المدينة على شيء فاعلم أنه السنة»[٣١].

قال مالك: «كان عمر بن عبد العزيز يكتب إلى الأمصار يعلمهم السنن والفقه، ويكتب إلى المدينة يسألهم عما مضى، لعله يعمل بما عندهم»[٣٢].

ورسالة مالك إلى الليث مشهورة[٣٣] تشهد بذلك.

---

(٢٨) عياض : ١ / ١٨٥.

(٢٩) رواه أحمد: ٢/ ٢٩٩. والترمذي في أبواب العلم، باب ما جاء في عالم المدينة، ح٢٦٨٠ وقال: هذا حديث حسن وهو حديث ابن عيينة وقال في هذا: سئل من عالم المدينة فقال: إنه مالك بن أنس. قال عياض في رواية الترمذي هذا الطريق أشهر طرقه رجاله مشاهير ثقات خرج عن جميعهم البخاري ومسلم وأهل الصحيح. في المدارك: ١ / ٦٩ . ورواه الحاكم وقال: حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ووافقه الذهبي، في المستدرك: ١ / ٩١. كما رواه ابن حبان في صحيحه، في الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان، كتاب الحج، باب فضل المدينة، ح ٣٧٢٨. قال ابن الأثير: قال عبدالرزاق في حديثه: هو مالك بن أنس. في جامع الأصول: ٩ / ٢٤١.

(٣٠) عياض: ١/ ٦٩ ـ ٧٥ ابن تيمية: ٢٠ / ٣٢٣.

(٣١) عياض: ١/ ٣٨.

(٣٢) المرجع السابق: ١ / ٣٩.

(٣٣) انظرها في المرجع السابق: ١/ ٤١ ـ ٤٤.

قال مالك: قال ابن عمر: كتب إليّ عبدالله بن الزبير وعبدالملك بن مروان كلاهما يدعوني إلى المشورة، فكتبت إليهما: إن كنتما تريدان المشورة فعليكما بدار الهجرة والسنة[٣٤]

قال الشافعي: إذا وجدت معتمداً من أهل المدينة على شيء فلا يكن في قلبك منه شيء[٣٥].

قال أبو نعيم: سألت مالكاً عن شيء، فقال لي: إن أردت العلم فأقم، يعني بالمدينة فإن القرآن لم ينزل على الفرات[٣٦].

قال مجاهد وعمرو بن دينار وغيرهما من أهل مكة: لم يزل شأننا متشابها متناظراً حَتَّى خرج عطاء بن أبي رباح إلى المدينة، فلما رجع إلينا استبان فضله علينا[٣٧].

وقال مالك: «انصرف رسول الله ﷺ من غزوة كذا في نحو كذا وكذا ألفاً من الصحابة، مات بالمدينة منهم نحو عشرة آلاف، وباقيهم تفرق في البلدان، فأيهما أحرى أن يتبع ويؤخذ بقولهم، من مات عندهم النبي ﷺ وأصحابه الذين ذكرت، أو من مات عندهم واحد أو اثنان من أصحاب النبي ﷺ»[٣٨].

٣ – كون مالك قد حاز علم المدينة وصارت الإمامة إليه في ذلك بلا منازع.

قال حميد بن الأسود: «قال مالك:كان إمام الناس عندنا بعد عمر بن الخطاب رضي الله عنه زيد بن ثابت، وإمام الناس بعد زيد بن ثابت عبد الله بن عمر. قال علي بن المديني: أخذ عن زيد أحد وعشرون رجلاً ممن كان يتبع رأيه ويقوم به: قبيصة، وخارجة بن زيد – وعبيد ابن عبد الله بن مسعود، وعروة بن الزبير ، وأبو سلمة، والقاسم بن محمد ، وأبو بكر بن عبد الرحمن، وسالم، وسعيد بن المسيب، وأبان بن عثمان، وسليمان بن يسار.

ثم صار علم هؤلاء كلهم إلى ثلاثة: ابن شهاب، وبكير بن عبد الله بن الأشج، وأبي الزناد.

---

(٣٤) المرجع السابق: ١ / ٣٩.

(٣٥) المرجع السابق: ١ / ٤٠.

(٣٦) المرجع السابق: ١ / ٤٠.

(٣٧) المرجع السابق: ١ / ٤١.

(٣٨) المرجع السابق: ١ / ٤٦.

وصار علم هؤلاء كلهم إلى مالك بن أنس، وكان ابن مهدي يعجبه هذا الإسناد ويميل إليه»[٣٩].

وقال ابن تيمية: «وفي القرون - الأربعة الأول - التي أثنى عليها رسول الله ﷺ كان مذهب أهل المدينة أصح مذاهب أهل المدائن.... ولهذا لم يذهب أحد من العلماء إلى أنَّ إجماع أهل مدينة من المدائن حجة يجب اتباعها غير المدينة.... والكلام إنما هو إجماعهم في تلك الأعصار المفضلة.... وإذا تبين أنَّ إجماع أهل المدينة تفاوت فيه مذاهب جمهور الأئمة، علم بذلك أنَّ قولهم - أهل المدينة - أصح أقوال أهل الأمصار رواية ورأيا، وأنَّه تارة يكون حجة قاطعة، وتارة حجة قوية، وتارة مرجحاً للدليل، إذ ليست هذه الخاصية لشيء من أمصار المسلمين .... ثم من تدبر أصول الإسلام و قواعد الشريعة وجد أصول مالك وأهل المدينة أصح الأصول و القواعد، وقد ذكر ذلك الشافعي وأحمد وغيرهما»[٤٠].

ثم بعد ذلك بين أن الإمام مالك: «أقوم الناس بمذهب أهل المدينة رواية ورأيا، فإنه لم يكن في عصره و لا بعده أقوم بذلك منه»[٤١].

٤ - شهادة علماء الإسلام شرقا وغرباً من معاصري مالك ومن جاء بعدهم بإمامته وتقدمه.

قال ابن هرمز - شيخه - فيه: «إنه عالم الناس»[٤٢].

وقال ا بن مهدي، و قد سئل عن مالك وأبي حنيفة: «مالك أعلم من أستاذ أبي حنيفة»[٤٣].

قال النسائي: «أمناء الله على وحيه: شعبة، ومالك،ويحيى بن سعيد القطان، وما أحد عندي بعد التابعين أفضل من مالك،ولا أجل منه ولا أوثق،ولا أحد آمن على الحديث منه»[٤٤].

---

(٣٩) عياض : ١ / ١٥٩.

(٤٠) ابن تيمية: ٢٠ / ٢٩٩ ـ ٣٢٨.

(٤١) المرجع السابق: ٢٠ / ٣٢٠.

(٤٢) عياض: ١ / ٧٥.

(٤٣) المرجع السابق: ١ / ٧٦.

(٤٤) المرجع السابق: ١ /١٥٧.

وقال سفيان: «إذا قال مالك بلغني فهو إسناد قوي»[٤٥].

وقال البخاري، وأبو زرعة الرازي،ومحمد بن عبد الحكم وأبو عبد الله بن الربيع وغير واحد: «مالك بن أنس إمام»[٤٦].

٥ – إمامة مالك في علوم الشريعة،فقد أجمعت الأمة على أنَّ مالكاً إمام في الحديث وإمام في الفقه وإمام في السنة، مع جمعه لدرجات الاجتهاد كلها. وتقدم لنا قول البهلول ابن راشد.

قال عياض: «لا خفاء على منصف بمنصب مالك من الإمامة في علوم الشريعة وعلم الكتاب والسنة، وأنه إمام المسلمين وأعلمهم في وقته بسنة ماضية وباقية وأمير المؤمنين في الحديث، ثم العلم بالاختلاف والاتفاق.... وهو أول من تكلم في غريب الحديث.... وله في تفسير القرآن كلام كثير وقد جمع، وتفسير يرويه عنه بعض أصحابه»[٤٧].

وقال ابن عبد البر: «معلوم أنَّ مالكاً كان أشد الناس تركاً لشذوذ العلم، وأشدهم انتقاداً للرجال، وأتقنهم حفظا فلذلك صار إماماً»[٤٨].

٦ – عدم قصور رتبة مالك عن غيره في النظر والرأي، بل إنَّ مالكا السابق واللاحق، إلا أن النظر عنده تابع للكتاب والسنة،لأن الرأي والنظر إذا لم يبن على الأصلين: الكتاب والسنة فهو قاصر.

وإليك نص المناظرة التي جرت بين الشافعي ومحمد بن الحسن:

قال الشافعي: «ذاكرت محمد بن الحسن يوماً فقال لي: صاحبنا، يعني أبا حنيفة، أعلم من صاحبكم، يعني مالكا.

فقلت له: الإنصاف تريد أم المكابرة؟

قال: الإنصاف.

---

(٤٥) عياض: ١ / ١٦٥.

(٤٦) المرجع السابق: ١ /١٥٧.

(٤٧) المرجع السابق: ١/ ١٢٨.

(٤٨) ابن عبد البر: ١ / ٦٥.

قلت: ناشدتك بالله الذي لا إله إلا هو، من أعلم بكتاب الله، وناسخه ومنسوخه؟

قال: اللهم صاحبكم.

قلت له: فمن أعلم بسنة رسول الله ﷺ؟ قال: اللهم صاحبكم.

فقلت له: فلم يبق إلا القياس.

قال: صاحبنا أقيس.

قلت: القياس لا يكون إلا على هذه الأشياء، فعلى أيّ شيء يقيس؟ ونحن ندعي منه لصاحبنا مالا تدعونه لصاحبكم.

وفي بعض الروايات عنه:

فقلت له: وصاحبنا لم يذهب عليه القياس، ولكنه يتوقى ويتحرى؛ يريد يتأسى بمن تقدمه»[٤٩].

وقد كان مالك أول طلبه أخذ عن ربيعة الرأي.

قال عياض: قيل لابن هرمز: «نسألك فلا تجيبنا، ويسألك مالك وعبد العزيز فتجيبهما؟

فقال: دخل علي في بدني ضعف، ولا آمن أن يكون قد دخل علي في عقلي مثل ذلك، وأنتم إذا سألتموني عن الشيء فأجبتكم قبلتموه، ومالك وعبد العزيز ينظران فيه، فإن كان صواباً قبلاه وإن كان غيره تركاه»[٥٠].

وقيل للإمام أحمد: «الرجل يحب أن يحفظ حديث رجل بعينه من ترى يحفظ ؟

قال: حديث مالك، فإنه حجة بينك وبين الله تعالى. وقاله أيضاً لرجل سأله: أي شيء أكتب من الحديث ؟

قيل له: فيريد أن ينظر في الرأي، ورأي من ترى ينظر؟

قال: رأي مالك، وقال: يرحم الله مالكاً كان من الإسلام بمكان.

(٤٩) عياض: ١ / ١٥٠. ١٥١. ابن تيمية: ٢٠ / ٣٢٨.

(٥٠) عياض: ١/ ١٦٢.

وقال: لا يترك عن مالك حديث ولا كلام إلا كتب»[٥١].

قيل لأبي الأسود شيخ مالك بمصر، سنة إحدى وثلاثين ومائة «من للرأي بعد ربيعة بالمدينة، فإن يحيى بن سعيد بالعراق، قال: الغلام الأصبحي»[٥٢].

٧ - وبالمقارنة يعرف الأفضل، فبلد العلم ومهده المدينة، وقد سلم له علماؤها بالإمامة في الفقه والحديث والسنة كما مر لنا آنفا، بل سلم له بالإمامة في الفقه والحديث والسنة علماء الإسلام شرقا وغربا.

أما أهل العراق فمعلوم كلام أهل الحديث في ذم مذهبهم ومعلوم قصور رتبة أئمتهم في الحديث عن مالك، حتى أن أبا يوسف ومحمد بن الحسن قد رجعا عن كثير من آراء الإمام أبي حنيفة لما بلغتهم السنن والآثار التي عند أهل المدينة.

وقصة المناظرة المشهورة بين الشافعي ومحمد بن الحسن قد تقدم ذكرها.

قال عياض: «قيل لأبي حنيفة: كيف رأيت غلمان المدينة ؟

قال: إن نجب منهم، فالأشقر الأزرق، يعني مالكا، وفي رواية: رأيت بها علماً مبثوثا، فإن يجمعه أحد فالغلام الأبيض الأحمر.

قال ابن غانم: فذكرت ذلك لمالك فقال صدق، لقيته فرأيت رجلاً له علم وفهم لو بني على أصل، أثر أهل المدينة»[٥٣].

وقال عياض: «ولما قدم حماد بن زيد المدينة لم يأته أحد من أصحاب مالك، فراح حماد فشكا ذلك إليه، فقال له: أنا أمرتهم بذلك، قال: ولم يا أبا عبد الله ؟ قال: لأنكم يا أهل العراق تكتبون بالمدينة عمن لا شهادة له عندنا، فنتوهم عليكم أنكم تفعلون هكذا في بلادكم، فرجع حماد فأسقط عامة علمه»[٥٤].

---

(٥١) المرجع السابق: ١ / ١٥٤.

(٥٢) المرجع السابق: ١ / ١٤٨.

(٥٣) عياض: ١ / ١٤٧.

(٥٤) المرجع السابق: ١/ ١٧٣.

وهذا لا يقدح في إمامته وعلمه وفضله.

وأما الشافعي رحمه الله فإنه تلميذ مالك، وهو إمام من أئمة المسلمين لا ينكر فضله، لكن قصور رتبته في الحديث عن مالك معلومة ظاهرة لا تحتاج إلى بحث ؛ فقد كان يقول لأحمد وابن مهدي: إذا صح الحديث فأخبراني لأعمل به، فقصور رتبته عن الإمامة في الحديث الذي عليه القياس يرفع من اجتمعت له الإمامتان عليه..

وعندما ذهب إلى مصر ونشر بها مذهبه الجديد، ونقد مالكاً في مخالفته - بزعمه - لبعض الآثار تصدى له أصحاب مالك وردوا عليه، ولم أقف على شيء مطبوع إلا رد ابن اللباد القيرواني، وكان أهل مصر في عصر الشافعي أكثر ردوداً عليه.

وأما إمام أهل السنة - في زمنه - صاحب المحنة الكبيرة، فرغم إمامته في الحديث فلم تسلم له الإمامة في الفقه، لم يسلم له ذلك الطبري ولا ابن عبد البر ولا غيرهما، ممن عاصره أو جاء بعده، رغم سعة علمه وكثرة روايته، فقد عد من أهل الحديث، وأخذ عليه تقديمه الحديث الضعيف على القياس.

فلم يبق إلا أهل الظاهر، وأهل السنة بالاتفاق لا يرونهم، وقد يذكرون خلافهم ولا يعدونه.

فلم تجتمع لإمام من الأئمة الإمامة في الفقه والحديث والسنة إلا مالك، رحم الله الجميع ورضي عنهم.

يقول الحافظ الذهبي: «وقد اتفق لمالك مناقب ما علمتها اجتمعت لغيره، أحدها: طول العمر، وعلو الرواية، وثانيها: الذهن الثاقب، والفهم،وسعة العلم، وثالثها: اتفاق الأمة على أنه حجة صحيح الرواية، ورابعها: تجمعهم على دينه، وعدالته، واتباعه السنن، وخامسها: تقدمه في الفقه، والفتوى، وصحة قواعده»[٥٥].

٨ - جمع مالك بين الفقه والحديث، أو الرأي والحديث، وتوسطه في ذلك، ومعرفته للسنن الماضية التي عليها عمل أصحاب رسول الله ﷺ والتابعين وهذا من صحة أصوله وقواعده التي ألمحنا لشيء منها آنفا.

(٥٥) الذهبي، تذكرة الحفاظ: ١ / ٢١٢.

هذه بعض الأسباب التي تمكنت من الوقوف عليها، وهي أسباب وجيهة كافية تجعل أهل المغرب يرجحون اتباع مذهب مالك على المذاهب الأخرى. وما سوى ذلك من التعليلات فهي لا تخلو من ضعف وقصور نظر، أو أنَّها انطباعات قد تكون لها أسبابها، إلا أنَّها بكل الأحوال ليست تعليلات علمية.

مذهب مالك في الجمع بين الفقه والحديث وصلة المدرسة القيروانية بذلك:

سبق الحديث عن رتبة مالك في الفقه والحديث والسنة بما لا داعي لإعادته، فجاء علمه مزجاً بين الحديث والرأي في توسط واعتدال، ودار على ذلك كتابه الموطأ، بل إن الإمام مالكا صرح برأيه في هذه المسألة عندما صنف عبد العزيز بن الماجشون موطأ، ولم يذكر فيه الأحاديث النبوية، بل جعله فقهاً صرفاً من علم أهل المدينة، فلما رآه مالك قال: «ما أحسن ما عمل ولو كنت أنا لبدأت بالآثار، ثم شددت ذلك بالكلام»[٥٦].

فلعل ما دفعه إلى عمل الموطأ، بعد إشارة أبي جعفر، هو المزج بين الفقه والحديث، في كتاب تنتفع به الأمة، فلا هو حديث صرف لا تستبين منه الأمة، ولا هو رأي صرف لا ترى فيه آثار السنة.

قال سليمان بن بلال: «لقد وضع مالك الموطأ وفيه أربعة آلاف حديث أو قال - أكثر-، فمات وهي ألف حديث ونيف، يخلصها عاماً عاما، بقدر ما يرى أنه أصلح للمسلمين، وأمثل في الدين»[٥٧].

وقد شرح لنا مالك جملة ما في الموطأ قائلا: «فيه حديث رسول الله ﷺ، وقول الصحابة والتابعين، ورأي، وقد تكلمت برأيي، وعلى الاجتهاد، على ما أدركت عليه أهل العلم ببلدنا، ولم أخرج من جملتهم إلى غيره»[٥٨].

وقد شرح لنا مالك معنى ما ورد في الموطأ، من قوله: «الأمر المجتمع عليه»، و «الأمر عندنا»، أو «ببلدنا»، و«أدركت أهل العلم»، ونحو هذا قائلا: «أما أكثر ما في الكتب»

(٥٦) عياض: ٢/ ٧٥.
(٥٧) المرجع السابق: ٢ / ٧٣.
(٥٨) المرجع السابق: ٢ / ٧٣.

فرأيي»، فلعمري ما هو برأيي، ولكن سماع من غير واحد من أهل العلم والفضل والأئمة المقتدى بهم، الذين أخذت عنهم، وهم الذين كانوا يتقون الله، فكثر عليّ فقلت: «رأيي» وذلك رأيي إذا كان رأيهم مثل رأي الصحابة، أدركوهم عليه، وأدركتهم أنا على ذلك، فهذا وراثة توارثوها قرناً عن قرن إلى زماننا.

وما كان «رأيي» فهو رأي جماعة ممن تقدم من الأئمة.

وما كان فيه «الأمر المجتمع عليه» فهو ما اجتمع عليه من قول أهل الفقه والعلم لم يختلفوا فيه.

وما قلت: «الأمر عندنا» فهو ما عمل الناس به عندنا، وجرت به الأحكام، وعرفه الجاهل والعالم.

وكذلك ما قلت فيه «ببلدنا» وما قلت فيه «بعض أهل العلم» فهو شيء أستحسنه من قول العلماء.

وأما ما لم أسمع منه، فاجتهدت ونظرت على مذهب من لقيته، حتى وقع ذلك موقع الحق أو قريباً منه، حتى لا يخرج عن مذهب أهل المدينة وآرائهم، وإن لم أسمع ذلك بعينه فنسبت الرأي إليَّ بعد الاجتهاد مع السنة»[٥٩].

وقد كان لاجتهاد مالك ورأيه مقام عال عند علماء الإسلام؛ لأنه بنى رأيه واجتهاده على سند متين من الأحاديث الصحيحة التي عليها العمل، آخذاً بعين الاعتبار اجتهاد أهل العلم من الصحابة والتابعين.

وقد مرت بنا أقوال العلماء من أشياخه ومن بعدهم في الشهادة له بالإمامة، ولعلنا نورد هنا ما لم نورده آنفا.

فعندما سئل الإمام أحمد عن من يريد أن يكتب الحديث وينظر في الفقه، حديث من يكتب، وفي رأي من ينظر ؟، قال: «حديث مالك ورأي مالك»[٦٠] وقال: «لا يترك عن مالك حديث ولا كلام إلا كتب»[٦١]. وقال، بعد تفضيله مالك على الثوري، والأوزاعي والليث

(٥٩) عياض: ٢ / ٧٤.

(٦٠) المرجع السابق: ١ / ٧٦.

(٦١) المرجع السابق: ١ / ١٥٥.

والحكم وحماد: «مالك سيد من سادات أهل العلم، وهو إمام في الحديث والفقه ومن مثل مالك متبع لآثار من مضى مع عقل وأدب ؟!»[٦٢].

وقال يحيى بن معين: «مالك نبيل الرأي، نبيل العلم، أخذ المتقدمون عن مالك ووثقوه، وكان صحيح الحديث»[٦٣].

وقال الشافعي: «إذا ذكر العلماء فمالك النجم، ولم يبلغ أحد في العلم مبلغ مالك، لحفظه وإتقانه وصيانته، ومن أراد الحديث الصحيح فعليه بمالك»[٦٤].

الموطأ:

هذه الإمامة والديانة هي التي جعلته يُنقي الموطأ وينظر فيه بما هو أصلح للمسلمين، فبعد أربعين سنة من الفحص والتحري والتنقيح نراه قد حوى نحواً من ألف وسبعمائة وعشرين حديثاً (١٧٢٠)، فيه من الأحاديث المسندة ستمائة حديث (٦٠٠)، ومن الأحاديث المرسلة مائتان واثنان وعشرون حديثا (٢٢٢)، ومن الآثار الموقوفة ستمائة وثلاثة عشر أثرا (٦١٣) ومن أقوال التابعين مائتان وخمسة وثمانون (٢٨٥)[٦٥].

فنراه بعد ذكر حديث الباب، إن كان ثمة، يعقبه بالمراسيل، ثم بالموقوفات، ثم بأقوال التابعين ، ثم برأيه واجتهاده ، الذي مر بنا آنفا معناه.

فمالك رحمه الله قد جمع في الموطأ بين الحديث والفقه جمعا مناسبا، وإذا نظرنا لفتاواه المنقولة في غير الموطأ، وهي الأكثر نجده قد أخذ بالرأي والاجتهاد في مسائل ليست قليلة، بل ربما خالف فيها الحديث، إذا عارض أصلاً أقوى منه، من آية محكمة، أو قاعدة مطردة، أو عمل مستمر في المدينة.

فهو قد أعمل الرأي، لكن كما قلنا على علم راسخ بالنص.

وقد ذكر حفاظ المذهب وعلماؤه طرفاً من هذه القضية عند الحديث عن القياس وخبر الآحاد[٦٦].

---

(٦٢) المرجع السابق: ١ / ١٥٤.

(٦٣) المرجع السابق: ١ / ١٥٥.

(٦٤) عياض: ١ / ١٤٩.

(٦٥) السيوطي: ١/ ٩، نقلاً عن أبي بكر الأبهري.

(٦٦) القرافي: ١٦٧. الشاطبي: ٣ / ٢١ ـ ٢٤.

وعلى هذا المنهج درج أصحاب مالك في الجمع بين الحديث والرأي؛ يقول يحيى بن يحيى الليثي : «كنت آتي عبد الرحمن بن القاسم فيقول لي:من أين يا أبا محمد ؟ فأقول من عند عبد الله بن وهب، فيقول:اتق الله فإن أكثر هذه الأحاديث ليس عليها العمل، ثم آتي عبد الله بن وهب فيقول لي: من أين ؟ فأقول من عند ابن القاسم، فيقول لي: اتق الله يا أبا محمد فإن أكثر هذه المسائل رأي.

ثم يرجع يحيى فيقول: رحمهما الله، فكلاهما قد أصاب في مقالته، نهاني ابن القاسم عن اتباع ما ليس عليه العمل من الحديث وأصاب، ونهاني ابن وهب عن غلبة الرأي وكثرته وأمرني بالاتباع فأصاب»[٦٧].

المدونة:

وإذا ما عدنا إلى القيروان، والمؤسس الحقيقي للمدرسة القيروانية وباني أركانها أو كما وصفه الدكتور عبد المجيد بن حمدة قائلاً: «هو فاتحة عهد التطور السني»[٦٨]،

وهو الإمام سحنون، نجد مدونته، التي شحنت بأقوال مالك، وآرائه في المسائل والمشكلات، لم تخل من الأحاديث والآثار، فقد استفاد سحنون مثل ما استفاد يحيى بن يحيى الليثي من ابن القاسم وابن وهب.

فالأسدية هي أصل المدونة. وهي سؤالات لأسد بن الفرات سألها ابن القاسم متطلعاً لرأي مالك إن كان ثمة وإلا فرأي ابن القاسم على قياس مذهب إمامه.

وقد أخذها سحنون من أسد في القيروان، ورحل إلى ابن القاسم بمصر، وقابلها عليه فرجع عن بعضها وأصلح بعضها، وأضاف إليها.

والذي يظهر لي أنَّ سحنوناً بعد ذلك أوفي أثناء عرضها على ابن القاسم، كان يذهب إلى ابن وهب، ويقرأ عليه ما أخذه عن ابن القاسم،فيملي عليه ما قد يراه مناسباً للباب من الأحاديث، فيثبت سحنون بعضها باجتهاده.

ولو تتبعنا المدونة نجد جملة كبيرة فيها من الأحاديث عن ابن وهب.

---

(٦٧) عياض: ٣ / ٣٨٧.

(٦٨) ابن حمده: ٤٢.

وقد قام الدكتور الطاهر محمد الدرديري، بتخريج الأحاديث النبوية الواردة في المدونة في كتاب جليل طبعته جامعة أم القرى بمكة المكرمة.

وذكر أن في المدونة واحداً وأربعين وثلاثمائة (٣٤١) حديثاً صحيحا، وواحداً وثلاثين ومائة (١٣١) حديثاً حسنا، وسبعين (٧٠) حديثاً ترتفع للحسن، وتسعة (٩) أحاديث ضعيفة، فيبلغ ما خرجه من المدونة واحداً وخمسين وخمسمائة (٥٥١) حديثاً[٦٩]، ولربما فاته شيء منها.

فجاءت المدونة على منهج مالك في الجمع بين الفقه والحديث، وإن كانت إنما قُصِدت لمعرفة رأي مالك فقط دون حديثه، وقد خالفت المدونة الموطأ في الأسلوب، فأحاديث المدونة في أخريات الأبواب.

فكتاب الموطأ كتاب حديث وفقه، والمدونة كتاب مسائل فقهية يستطلع الناظر فيها إلى آراء مالك وابن القاسم، وقد رصّعت ما يناسبها من الأحاديث النبوية.

وعلماء القيروان الأوائل الذين رووا الموطأ عن مالك، وأدخلوه لتلك البلاد، قد أدخلوا بعده المدونة، التي هي أصل مذهب مالك وعليها اعتماد العلماء في مذهبه شرقاً وغرباً.

وقد كان لعلماء القيروان دور بارز لا يضاهيهم فيه أحد في خدمة المدونة، يقول ابن خلدون: «وعكف أهل القيروان على المدونة، ثم اختصرها ابن أبي زيد، ولخصه أبو سعيد البراذعي، من فقهاء القيروان، في كتابه المسمى بالتهذيب، واعتمده المشيخة من أهل القيروان، وأخذوا به وتركوا ما سواه»[٧٠].

وذكر - ابن خلدون - جملة ممن كتب على المدونة من أهل إفريقية مثل ابن يونس واللخمي وابن محرز التونسي وابن بشير وأمثالهم. إلى أن قال: «وجمع ابن أبي زيد جميع ما في الأمهات من المسائل والخلاف والأقوال في كتابه النوادر، فاشتمل على جميع أقوال المذهب، وفرغ الأمهات كلها في هذا الكتاب، ونقل ابن يونس معظمه في كتابه على المدونة»[٧١].

(٦٩) الدرديري: ١٢٦٥.

(٧٠) ابن خلدون: ١٠٥٦-١٠٥٧.

(٧١) المرجع السابق: ١٠٥٦-١٠٥٧.

نماذج من المدرسة القيروانية في الذب عن السنة:

اشتهر أهل المشرق بذبهم عن السنة، ووقوفهم أمام المبتدعة، والظلمة، من ذلك قصة الإمام مالك لما امتحن في التحديث بحديث: «ليس على مستكره طلاق»[٧٢]، الذي يجعل أهل الحجاز في حل من بيعة أبي جعفر لما خرجوا عليه.

وموقف الإمام أحمد في فتنة خلق القرآن.

ووقوف أبي الحسن الأشعري في وجه المعتزلة، وغيرهم.

ولم يشتهر عند المشارقة خصوصاً تلك المواقف الرائعة التي سطرها التاريخ للمغاربة في مثل هذا الميدان.

يقول الدكتور عبد المجيد بن حمده: «كانت لهم - أهل السنة - مواقف تاريخية ضد المخالفين، وأمكن بفضل جهودهم أن تبرز المدرسة السنية الإفريقية ؛ في مرحلة المشاركة العلمية ؛ بالمناظرات، والمناقشات، والمواقف المضادة الصريحة لكل المخالفين وفي مقدمتهم من كانت بيدهم السلطة»[٧٣].

وسنتحدث عن بعض هذه الأمثلة من المدرسة القيروانية على وجه الخصوص، لنرى الدور البارز الذي لعبته هذه المدرسة في القيام بالسنة أمام المبتدعة والمخالفين والمعتدين.

ونرى مدى تمكن هؤلاء الأفذاذ، ودورهم في المدرسة الحديثية جنبا إلى جنب مع مواقفهم تلك ومؤلفاتهم الفقهية.

إن موقف ابن عمر من الدنيا والحكام معلوم لدى هذه المدرسة.يقول نافع: «دخل ابن عمر الكعبة، فسمعته يقول، وهو ساجد، قد تعلم ما يمنعني مزاحمة قريش على هذه الدنيا إلا خوفك»[٧٤].

قال نافع: «كان يرسل بالمال إلى ابن عمر فيقبله، ويقول: لا أسأل أحداً شيئا، ولا أرد ما رزقني الله»[٧٥].

---

(٧٢) عياض: ٢/ ١٣٠. هذا لفظه، والأشهر «لا طلاق في إغلاق»، انظر - تلخيص الحبير: ٣ / ٢٣٧.

(٧٣) ابن حمده: ٣١.

(٧٤) ابن الجوزي: ١/ ٥٦٦.

(٧٥) المرجع السابق: ١ / ٥٧١.

وأرسل إليه مرة معاوية يلمح له أن يحضر للشام ليجزل عطاءه، فأجابه إن كان قد كتب لي فسيأتيني إلى مكاني.

وقصة سعيد بن المسيب لما قدم الخليفة عبد الملك بن مروان،في عهد إمارة عمر بن عبد العزيز على المدينة،ليرى تجديد المسجد النبوي، فأخلي له المسجد غير سعيد بن المسيب، هابوه، فطاف عبد الملك بالمسجد وعمر يحاول أن يصرفه عن مكان سعيد، ويعتذر له، وعبد الملك يعرف الأمر فقال: قد علمنا بغضه لنا فوقف الخليفة على سعيد فسلّم عليه، فرد عليه سعيد ولم يقم له[٧٦].

وكذلك عندما خطب عبد الملك بن مروان ابنته لابنه الوليد لم يزوجه، بل رفض المبايعة للوليد بن عبد الملك في عهد أبيه فضرب وهدد بالقتل فلم يفعل[٧٧].

وقصة محنة مالك، ومواقفه مع أمير المدينة، مع مواقفه من المبتدعة في إسكاتهم وإخراجهم، أو مناقشة من ظهر له صدقه منفردا لعدم رغبته في انتشار أهل البدعة.

كل هذه المواقف ومثيلاتها باتت ماثلة للمدرسة القيروانية، وتطورت بسبب كثرة المبتدعة وظهور أمرهم، وجور بعض السلاطين.؟

ولعلنا نختار علمين من أعلام القرن الثالث والرابع وصَفَهُما ابن الحداد المتوفى(٣٠٢) بقوله: «ما كان بهذا البلد - القيروان - أحد أقوم بالسنة من رجلين، بهلول في وقته، وسحنون في وقته»[٧٨].

فلنبدأ بالحديث عن **البهلول**.

١ - البهلول بن راشد الحَجْري الرُّعيني(١٢٨- ١٨٣)[٧٩] سمع من مالك والليث وسفيان والثوري وغيرهم، وممن روى عنه سحنون، وعبد الله بن مسلمة القعنبي وغيرهما. كان من الفقهاء وغلب عليه العبادة والتقوى. قال سحنون: مثل العلم القليل في الرجل الصالح مثل العين العذبة يزرع عليها صاحبها زرعاً فينتفع به، ومثل العلم الكثير

(٧٦) ابن كثير: ٩ / ٩١.

(٧٧) المرجع السابق: ٩ / ١١٢.

(٧٨) المالكي: ١ / ٢٠٣.

(٧٩) رجعنا في ترجمته والنقولات عنه إلى رياض النفوس: ١ / ٢٥٤ - ٢٧٣.

في الرجل الغير صالح مثل العين الخرارة في الأرض السبخة تهدر الليل والنهار فلا ينتفع بها.... هذا البهلول كان رجلاً صالحاً ولم يكن عنده من الفقه ما عند غيره، نفع الله تعالى به، وذكر رجلاً آخر صحب السلطان، فقال إنه بحر من البحور، ما نفعه الله بعلمه.

قال القعنبي: حدثني البهلول: وهو وتد من أوتاد المغرب .

وعلى الرغم من إيثاره الانكماش والعبادة إلا أنَّ مهمَّة الذبِّ عن السنَّة، لمَّا فشت البدعة، لم تدعه يسكت لا على حاكم ولا محكوم.

يقول سحنون: إنما اقتديت في ترك السلام والصلاة خلف أهل الأهواء بمعلمي البهلول.

قال أبو عثمان بن الحداد: أقبل أبو محرز[٨٠] إلى بهلول يعوده، فلما انتهى إلى درب البهلول الذي فيه داره، قيل للبهلول: أتاك أبو محرز لعيادتك، فقال: قولوا له: إن كنت على رأيك فلا تقربنا. وهذا منه – رحمه الله – في غاية الفطانة، لأنه ربما رئي في داره فيظن الناس به خيراً فيأخذون عنه، وإذا علم الناس رد البهلول له وطرده إياه علموا أن ذلك كان لبدعته فتركوه.

بل إنه كان شديداً حتى على من يسلم على أهل البدعة أو يجالسهم فنراه يعاتب سحنوناً ويغلظ له حينما علم أنه مر بسقيفة العراقي وهم يتناظرون في الاعتزال، فوقف يسمع منهم.

وأعرض يوماً عن سحنون ولم يرد عليه السلام، لأنه سمع رجلاً من أهل الأهواء يسلم على سحنون ويسأله عن حال الشيخ – بهلول – فلما قال له سحنون والله ما رددت عليه جوابا، قال عند ذلك بهلول: مرحباً وأهلاً وسلم عليه وقال له: إن هذا الذي أمرتك به تعرف به الحق من الباطل.

وموقفه كذلك مع النصارى حيث كانوا مجاورين لهم في البلاد فخشيَ – يرحمه الله – من كثرة المجاورة والمعايشة، أن تحدث مودة أو محبة تفضي إلى مخالفة أمر الله سبحانه وتعالى من الإعجاب بهم أو الركون إليهم، فنجده عندما أرسل رجلاً بدينارين إلى الساحل

(٨٠) هو أحد رؤوس المعتزلة بالقيروان.

ليشتري له زيتاً عذبا، فلم يجد أعذب من زيت عبد نصراني فذهب إليه وأخبره إنما يشتريه للبهلول،فقال النصراني:فنحن نتقرب إلى الله بالبهلول كما تتقربون به إلى الله تعالى، فأعطاه بدينار يه ما يباع بأكثر من أربعة، فلما رجع للبهلول وأخبره الخبر، قال له: قضيت حاجة فاقض الأخرى: أردد عليّ الدينارين، فقال له الرجل: ولِمَ أصلحك الله ؟ قال:

ذكرت قول الله عز وجل ﴿**لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله**﴾[٨١]، فخشيت أن آكل من زيت النصراني فتحدث له مودة في قلبي،فأكون ممن واد من حاد الله ورسوله على عرض من الدنيا يسير.

وكان مع خشيته من الركون إلى النصارى أشد خشية من الركون إلى السلاطين، فعندما أتى هرثمة بن أعين، وهو والي إفريقية، إلى البهلول برجاله وألويته، وكان البهلول في مسجده مستنداً إلى اسطوانة، فمال الوالي لينزل من دابته فلم يتحرك البهلول ولم يرفع رأسه، فما كان من الوالي إلا أن رجع إلى دابته، وأمر من يعطي البهلول صرة الدراهم ويقول له: يأمرك الأمير أن تفرقها، فقال البهلول: قل له أنت أعرف بموضعه مني، وأبى قبولها.

وكان لا يذهب إلى الحكام إلا منكراً أو ناصحا أو راداً لمظلمة، فمن ذلك أن البهلول علم بأن والي إفريقية محمد بن مقاتل العكي قد عزم على إرسال بعض السلاح والحديد إلى ملك الروم، حيث كانت بينهما ملاطفات وهدايا، فذهب إليه، ووعظه ونهاه، و ألح عليه مما حدا بالأمير أن يأمر بجلد البهلول، فجلد.

فخشي العكي مما صنع ومن تحرك العامة والخاصة فأرسل للبهلول يسترضيه بالمال والكسوة فردها، فقال لرسوله: قل له يجعلني في حل، فقال: ما حل عني العقالين حتى جعلته في حل، مما زاده إعظاماً في عينه.

هذا هو البهلول أحد رجال القيروان وأئمتها الذي سمع من أئمة الحديث والفقه، قام بالذب عن السنة، منكراً على أهل البدعة والظلم والضلالة.

أما الرجل الثاني الذي سنلمح له هو تلميذه وخريج مدرسته **الإمام سحنون**.

(٨١) سورة المجادلة: آية: ٢٢.

٢ - أبو سعيد سحنون، عبد السلام بن سعيد التنوخي(١٦٠-٢٤٠)[٨٢]:

سمع من علي بن زياد، والبهلول،وغيرهما من علماء إفريقية ، وسمع بمصر من تلاميذ مالك، كابن القاسم، وأشهب، وابن وهب، وغيرهم، وبالمدينة من عبد الله بن نافع الصايغ ومعن بن عيسى، ومطرف، وغيرهم، وسمع بالشام من الوليد بن مسلم وغيره، وسمع سفيان بن عيينة، وعبد الرحمن بن مهدي، ووكيع، وأبي داود الطيالسي، وغيرهم من أهل الأمصار.

وقد سبق من كلام الذهبي وغيره إمامته في الحديث وعلومه، فهو واسع الرواية، غزير العلم، متفنن له مصنفات في فنون من العلم كثيرة، إمام يقتدى به، مع قيامه بالسنة في ردع أهل الأهواء والمبتدعة والوقوف أمام الظلمة من السلاطين وغيرهم، وإليك طرفاً من ذلك.

فمن جوانب قيامه بالسنة تحرِّيه في الفتوى، وتأنّيه،لئلا يعجل المُفْتُوْنَ بعده فتحدث الدواهي، كما هو حال بعض المعاصرين.

كان يقول: أجرأ الناس على الفتيا أقلهم علما، يكون عند الرجل باب واحد من العلم فيظن أنَّ الحق كله فيه.

قال عيسى بن مسكين لسحنون: تأتيك المسائل مشهورة، مفهومة، فتتأنى بالجواب فيها؟ فقال سرعة الجواب بالصواب أشد فتنة من فتنة المال. وقد عوتب في مثل هذا مرة، فقال: أنا أحفظ مسائل فيها ثمانية أقاويل من ثمانية أئمة فكيف ينبغي أن أعجل بالجواب حتى أتخير.

وكان يقول: إني لأسأل عن المسألة، فأعرفها، وأعرف في أي كتاب هي فيه، وفي أي ورقة، وأي صفحة، وعلى كم هي من سطر[٨٣]، فما يمنعني من الجواب فيها إلا كراهية الجرأة بعدي على الفتوى.

---

(٨٢) رجعنا في ترجمته والنقولات عنه إلى رياض النفوس: ١ / ٣٤٥. ٣٧٥. و في المدارك: ٤/ ٤٥. ٨٨. وقد أفرد بالتصنيف عنه من المتقدمين والمتأخرين.

(٨٣) وقد رأيت في شيخنا وسيد أسرتنا المؤرخ الشيخ يوسف بن راشد آل الشيخ مبارك نحو هذا في التاريخ.

على أنه كان أشد الناس حذراً من الجري وراء سؤالات السلاطين لئلا يتخذوه مطية، فلقد جاءه رسول الأمير زياد بن الأغلب في مسألة، فلم يجبه فيها بشيء، فرجع بلا جواب، فقال محمد بن عبدوس لسحنون: أخرج من بلد القوم، لا تساكنهم، أمس ترجع عن الصلاة خلف قاضيهم - ابن أبي الجواد - واليوم لا تجيبهم في مسائلهم، فقال له سحنون: أفتجيب إنساناً يريد أن يتفكه، يريد أن يأخذ قولي وقول غيري ؟ ولو كان شيئاً يقصد به الدين لأجبته، رحمك الله يا سحنون، فما أكثر المفتين في هذا الزمن على هوى السلاطين.

وكان يرحمه الله حذراً من السلطان ومصاحبته، والأكل عنده لئلا يدخله في دينه، فلقد كان يأكل من كده، وربما خرج الأيام الكثيرة لماشيته وزيتونه،فَكلِّم في ذلك وتركه الطلبة فقال: أحتاج إلى دراهم هؤلاء القوم - يعني الأمراء - فآخذها، فإذا أخذتها فارموا بكتبي في هذا الغدير.

وكان يقول: فوالله لقد ابتليت بهذا القضاء وبهم، فوالله ما أكلت لهم لقمة، ولا شربت لهم جرعة، ولا لبست لهم ثوبا.

ودخل عليه حمديس يوماً وهو يأكل خبزاً يابساً بالملح والماء ويقول: أما إني لم آكله زهادة في الدنيا ولكن لئلا احتاج إلى هؤلاء فأهون عليهم، وهذا من باب ترويض نفسه، وإلا فإنَّ غلته من الزيتون تبلغ في السنة خمسمائة دينار، فما تنقضي السنة إلا والديون عليه لكثرة صدقته ومعروفه..

لذلك كانوا يهابونه، ولا يستطيعون أن يأخذوا منه الفتاوى التي تناسب أهواءهم وسياساتهم المخالفة لشرع الله.

وكان إذا دخل على الحكام أمرهم ونهاهم كشيخه مالك، وربما قال لابن الأغلب - والي إفريقية - والناس يقبلون يده لا تعطهم يدك، لو كان هذا يقرِّب من الجنة لما سبقونا إليه.

توليه القضاء ومواقفه:

لمَّا أراد الله بأهل بلاده خيراً عزل قاضيهم، القائل بخلق القرآن، فأراده الأمير محمد ابن الأغلب على القضاء وشدد عليه حولاً كاملا، وحلف بالأيمان بعد مشاورة العلماء، فقبل القضاء بشروط منها ؛ أن لا يأخذ على قضائه من الأمير رزقا، وأنَّ أول ما ينظر في أموال

أهل بيت الأمير وأعوانه، لأنَّ قِبَلهم ظلامات على الناس منذ زمن طويل لم يجرؤ عليها من كان قبله، فقبل الأمير ذلك قائلا: نعم لا تبدأ إلا بهم، وأمر الحق على مفرق رأسي، فحلّفه سحنون على ذلك ثلاثا،فقبل عند ذلك سحنون القضاء، والكآبة تعلو وجهه قائلاً لابنته: اليوم ذبح أبوك بغير سكين.

فلما تولى القضاء سن فيه سنناً لم يسنها مَنْ قبله: من النظر في أمر الأسواق، والحسبة وتغيير المنكر، وفرَّق حلق أهل البدع من الجامع، وشرَّد أهل الأهواء منه – وهم الصفرية والإباضية والمعتزلة – وعزلهم عن الإمامة والأذان والتعليم، وأدب كثيراً منهم، وجعل تعيين الأئمة إليه.

فما أن تولَّى القضاء حتى نظر في خصومات الناس مع الأمراء والوزراء، وكان لا يقبل منهم الوكلاء في الخصومة، فاشتد عليهم أمره، فشكوه إلى الأمير، فأرسل إليه من يقول له: إنَّ فيهم – الأمراء والوزراء – غلظة، وقد شكوك ورأيت معافاتك من شرهم، فلا تنظر في أمرهم، فقال سحنون للرسول: ليس هذا الذي بيني وبينه، قل له: خذلتني خذلك الله. فلما بلغت الرسالة الأمير قال: ما نعمل به ؟ إنما أراد الله.

وقد كانت له قضايا كثيرة مع الأمراء والقواد، مرَّ حاتم الجزري – أحد قواد ابن الأغلب – بسبي كثير معه، فأمر سحنون أصحابه أن يخلصوهن منه، فشكاه إلى الأمير، فأرسل الأمير إلى سحنون أن اردد إلى حاتم السبي، فأبى سحنون، وقال:إنهن حرائر وقد أطلقتهن، فأرسل الأمير إليه أنَّهن إماء، فقال سحنون: وإن كن إماء فمثل حاتم لا يؤتمن على الفروج، فغضب الأمير وقال للرسول، قل له أتعبث، أرددهن كما أمرتك. فقال سحنون مغضبا قائلا: أنا أعبث ؟! هو والله الذي لا إله إلا هو يعبث، ثلاثا، والله لا أفعل حتى يفرق بين جسدي ورأسي.

فكتب سحنون كتاباً شديد اللهجة يتعلق بقضايا السبي وأرسله إلى ابن الأغلب، فما أن وصله وقرأه حتى ضرب به الأرض وقال: ما أدري، هو علينا أم نحن عليه، واسود وجهه، ورفع مجلسه، فلما جاء العصر فتح بابه، وأذن لأصحابه وقواده بالدخول، وقال لهم: ما أظن هذا الرجل يريد بنا إلا الخير، ونحن لانعلم، أرسلوا إليه يرسل إلينا المحتسبة لنكتب

لهم السجلات، حتى يذهبوا بها إلى أقصى عملي، ليأخذوا من يجدونه من الحرائر فكان ذلك،ولم يرض سحنون حتى فض الكتب التي كتبها لهم وقرأها ورضيها.

وأمثال هذه القصة يتكرر مع الأمراء والقواد حتى ضاقوا به، فسنحت لهم فرصة، إذ ثار القويبع على محمد بن الأغلب، قال بعض القواد: اليوم يُستمكن من سحنون، إما أن يخسر دينه أو دنياه، فقالوا للأمير: سحنون داعية مطاع، فَمُرْه ينصرك على هذا الخارجي. فبعث إليه الأمير، وأعلمه الأمر، واستشاره في قتاله، وأن يعلم الناس بفرض ذلك عليهم.

قال له سحنون: غشك من دَلَّك على هذا، متى كانت القضاة تشاورها الملوك في صلاح سلطانها ؟! ونهض من عنده.

محنته:

إن فتنة خلق القرآن قد عمت المشرق والمغرب، فما أن تولَّى الأمير زيادة الله بن الأغلب – وكان حاكماً قبل محمد بن الأغلب – الحكم حتى امتحن الناس بذلك، وكان منهم سحنون، فلما علم طلبهم له لجأ إلى عبد الرحيم الزاهد، وكان عبد الرحيم ورعا زاهدا له مقام عظيم عند العامة والخاصة، لا يخفر جواره، فوجه إليه الأمير رجلاً شديدَ البغض لسحنون في خيل له، فلما وصل صرف الله نيَّة الرجل في سحنون، فقال له: اذهب حيث شئت، فدمي دون دمك فشكره سحنون وقال له: ما كنت أعرضك لهذا، بل أذهب معك.

فشيعه أصحابه، لا يشكون أنه يقتل، فقال عبد الرحيم الزاهد لرسول الأمير: قل للأمير أوحشتنا من صاحبنا وأخينا – يعني سحنون – في هذا الشهر العظيم – رمضان – سلبك الله ما أنت فيه، وأوحشك منه، وقد عارضتني في ضيفي، لأعرضنك على رب العالمين.

فلما حضر سحنون، وعند الأمير قواده وقاضيه ابن أبي الجواد، وسئل سحنون عن خلق القرآن ؟ فقال: أما شيء أبتديه من نفسي فلا، ولكني سمعت من تعلمت منه، وأخذت عنه، كلهم يقولون: القرآن كلام الله غير مخلوق، فحكم بكفر سحنون، وأمر بقتله، لكنهم رأوا سجنه في بيته، ومنع الطلبة من الدخول عليه.

فلزم داره قهرا، وربما أتاه الطلبة خفية، فقال له أحدهم: البدعة فاشية، وأهلها، أعزاء، فقال: أما علمت أنَّ الله إذا أراد قطع بدعة أظهرها.

كما ابتلي - رحمه الله - في آخر عمره بجعل قاض آخر معه، فمات رحمه الله بعد ذلك بيسير.

الخاتمة

تبين من بحثنا عدة أمور:

١ – أنَّ المدرسة القيروانية ذات الاعتناء بالفقه المالكي قد جمع رجالها بين الفقه والحديث على طريقة مالك، لكنهم بين مكثر ومقل للحديث، ولربما لم يكن عند بعضهم شيء من الحديث بمفهوم الرواية والدراية، وأنَّ الغالب عليهم الاعتناء بالفقه وأنَّ الذهبي قد أغرب جدا في حكمه على المغرب.

٢ – أنَّ للمدرسة القيروانية اعتناءً خاصاً بالمدونة التي تعتبر بحق أصل مذهب مالك بعد الموطأ، وأنَّ الموطأ والمدونة قد جمعا بين الفقه والحديث جمعاً مناسبا.

٣ – أن المدرسة القيروانية قد أخذت بمذهب مالك عن قناعة تامة بأنَّ مالكاً أحق بالتقليد من غيره وأنَّهم دوَّنوا مذهبه ونقحوه وهذَّبوه ونشروه.

٤ – أنَّ حكم ابن خلدون على المغرب والمذهب المالكي وأسباب تقليدهم له وأخذهم به، حكم غير صائب.

٥ – أنَّ لعلماء القيروان دوراً بارزاً في القيام بالسنة والوقوف أمام المبتدعة، وأهل الأهواء والسلاطين يضاهي ما اشتهر عن المشارقة كالإمام مالك وابن حنبل والعز بن عبد السلام و أضرابهم.

وسبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين

والحمد لله رب العالمين

قائمة المراجع

١ - ابن الأثير، الإمام مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن الأثير الجزري، جامع الأصول في أحاديث الرسول، حقق نصوصه وخرج أحاديثه وعلق عليه عبدالقادر الأرناؤوط ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ- /١٩٨٣م.

٢ - الترمذي، سنن الترمذي، المكتبة التجارية، مصطفى أحمد الباز، مكة المكرمة.

٣ - التلمساني، شهاب الدين أحمد بن محمد المقري،،أزهار الرياض في أخبار عياض، مطبعة فضالة - المحمدية، المغرب. مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٣٥٨ هـ- / ١٩٣٩ م.

٤ - ابن تيميه، أحمد بن عبد الحليم، مجموع فتاوى ابن تيميه ، تصوير طبعة ١٣٩٨، السعودية

٥ - ابن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج، صفة الصفوة، حققه وعلق عليه محمد فاخوري، خرج أحاديثه الدكتور محمد رواس قلعه جي، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثانية ١٣٩٩هـ- / ١٩٨٩ م.

٦ - الحاكم، المستدرك، مع التلخيص للذهبي، دار المعرفة ، بيروت،.

٧ - ابن حبان، الإحسان ترتيب صحيح ، ترتيب الأمير علاء الدين علي بن بلبان الفارسي، تقديم كمال يوسف الحوت، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٧هـ- / ١٩٨٧م.

٨ - ابن حجر، أبو الفضل شهاب الدين أحمد بن علي بن محمد بن حجر العسقلاني الشافعي، تلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير، تحقيق وتعليق الدكتور شعبان محمد إسماعيل بجامعة الأزهر، الناشر مكتبة ابن تيمية، طبع مكتبة الكليات الأزهرية.

٩ - بن حمده، عبد المجيد، المدارس الكلامية بإفريقية إلى ظهور الأشعرية، مطبعة دار العرب، تونس، ١٤٠٦ هـ- / ١٩٨٦ م.

١٠ - الحموي، معجم البلدان، دار صادر، بيروت.

١١ - ابن حنبل، الإمام أحمد، المسند، الطبعة الخامسة، مصورة ، بيروت ١٤٠٥، المكتب الإسلامي، بيروت.

١٢ - ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، المقدمة، تحقيق الدكتور علي عبد الواحد وافي، دار نهضة مصر، القاهرة، الطبعة الثالثة.

١٣ - الدرديري، الدكتور الطاهر محمد، تخريج الأحاديث الواردة في المدونة، طبعة مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، مكة المكرمة،١٤٠٦هـ-

١٤ - الذهبي، الحافظ محمد بن أحمد، الأمصار ذوات الآثار، تحقيق قاسم علي سعد، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ١٤٠٦هـ- / ١٩٨٦م.

١٥ - الذهبي، الحافظ محمد بن احمد، تذكرة الحفاظ، طبع في حيدر آباد، الهند، ١٣٣٣- ١٣٣٤ .

١٦ - أبو زهرة، محمد، مالك حياته وعصره آراؤه وفقهه ، دار الفكر العربي، القاهرة.

١٧ - السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن، تنوير الحوالك شرح موطأ مالك، طبعة مصطفى البابي الحلبي، ١٣٧٠هـ- / ١٩٥١ م.

١٨ – الشاطبي، الموافقات في أصول الشريعة، ضبط و تحقيق محمد عبد الله دراز، دار المعرفة، بيروت.

١٩ – العابد، محسن، القيروان « دراسة حضارية » مقال ، منشورات مركز الدراسات الإسلامية بالقيروان «جامعة الوسط»، مطبعة تونس، قرطاج، ١٩٩٠ م.

٢٠ – ابن عبد البر، التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، طبعة وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمغرب، مطبعة فضالة – المحمدية، المغرب .

٢١ – عياض، القاضي عياض بن موسى بن عياض السبتي ، ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، تحقيق مجموعة بأمر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمغرب، مطبعة فضالة المحمدية، المغرب، الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ – / ١٩٨٣م

٢٢ – القرافي، أبو العباس أحمد بن إدريس، شرح تنقيح الفصول، المطبعة الخيرية القاهرة، ١٣٠٦ .

٢٣ – الكتاني، عبد الحي بن عبد الكبير، فهرس الفهارس و الأثبات و معجم المعاجم و المشيخات و المسلسلات، باعتناء الدكتور إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٢هـ /١٩٨٢م.

٢٤ – ابن كثير، إسماعيل بن عمر، البداية والنهاية، تحقيق محمد عبدالعزيز النجار، مكتبة الفلاح، الرياض، مطبعة الفجالة، القاهرة.

٢٥– لوبون، الدكتور غوستاف، حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر، عيسى البابي الحلبي، القاهرة.

٢٦– المالكي، أبو بكر عبدالله بن محمد، رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية تحقيق بشير البكوش، دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٤٠١هـ – / ١٩٨١م.

Abstract

The Qirnwani School

Dr. Abdul Hamid b. Mubarak

This article aims to explain the importance of the Qirnwani School, which is considered by most scholars in Al-Mishriq as a purely fiqh school with no achievements in Hadith science. The researcher lists the main opinions, especially of al-Dhabi and Ibn khaldun, and after criticizing them, moves on to explain the close links between this school and the Maliki doctrine in addition to giving some examples of the reactions of some of its scholars towards its opponents.

UNITED ARAB EMIRATES-DUBAI
COLLEGE OF ISLAMIC & ARABIC STUDIES

ACADEMIC REFEREED JOURNAL OF
ISLAMIC & ARABIC STUDIES COLLEGE

EDITOR IN-CHIEF
Prof. Yousif Ghioua

EDITORIAL BOARD
Dr. Faiz Al-Qur'aan
Dr. Khawlah Kaid
Dr. Abbashar Awad Muhammed
Dr. Al-Sharif Walad Ahmed
Dr. Qutub Al-Raisuni

ISSUE NO. 28
Dhu'l-qa'da 1425H - December 2004CE

ISSN 1607- 209X

This Journal is listed in the **"Ulrich's International Periodicals Directory"**
under record No. **157016**

e-mail: iascm@emirates.net.ae

ISSN 1607-209X

UNITED ARAB EMIRATES- DUBAI
COLLEGE OF ISLAMIC & ARABIC STUDIES

Academic Refereed Journal of

ISLAMIC & ARABIC STUDIES COLLEGE

ISSUE NO. 28
Dhu'l-qa'da 1425H - December 2004CE

e-mail: iascm@emirates.net.ae